الأسس النبوية في بناء العقلية الرشيدة
دراسة حديثية تحليلية

مَدْيَن جمال الصالح*

Prophetic Principles of Developing Sound Rationality: An Analysis Based on *Ḥadīth* Studies

Madyan Jamal Al-Saleh*

Abstract:

This article aims to explore the Prophetic principles of developing sound rationality. The *sunnah* of the Prophet contains numerous pearls of wisdom. The human mind is a primary tool to understand lived reality with all its fluctuations and complexities. Moreover, it is the first door to understanding the revealed texts. The Prophet's *sunnah* provides many principles and rules that can be adopted to inculcate sound rationality in the personality of a Muslim. If one understands these Prophetic principles correctly and follows them properly, they will lead one to succeed in life with distinction, leadership, and brilliance. Islam is not against reason nor does it prohibit its use. This article aims at deriving the principles of developing sound rationality from the Prophetic *sunnah* and explaining them with examples.

Keywords

Prophetic *sunnah*, reason, Islam, principles.

---

* مدرس في مدرسة ثانوية للبنين، فلسطين.

* Teacher, Higher Secondary School for Boys, Palestine.

Summary of the Article

The basic sources of Islam are the Qur'ān and *sunnah*, which are based on revelation, while other sources are subordinate to them. Therefore, the reason is also subject to the approval of these sources. However, the Qur'ān and *sunnah* have not only encouraged the use and development of the intellect but also provided solid resources through which people can use their intellect properly. Some of these resources are as follows: 1) One of them is knowledge. The Qur'ān says, "Read in the name of your Lord who created. . . ." The *sunnah* of the Prophet confirmed this matter in practice. For example, the Prophet (peace be on him) made the ransom of some of the prisoners of the War of Badr to teach the children of the Anṣār to write. Knowledge is the food of thought and trains a conscious mind that looks at things with insight, light, and guidance. 2) Another source is thinking, reflecting, and deduction. Thinking is the gateway to creativity and excellence. It leads to construction, progress, and reform. One of the tools of thinking is questioning. The Prophet (peace be on him) encouraged his companions to ask questions to sharpen their minds and provide them with new information interestingly and attractively. 3) Freedom from the chains of blind imitation is another source. Imitation is an impediment to thinking, a siege of creativity, and a death of growth and renewal. Only an inactive and shallow soul surrenders itself to the clutches of its imitation. 4) Another source is consultation. It reveals new ideas to people, improves their thinking abilities, and leads them to the best results through the exchange of ideas. 5) The fifth source is freedom from illusions and superstitions. The Qur'ān and the *sunnah* liberate and cleanse the Muslims' minds from illusions that are not based on sound evidence. 6) Another source is to avoid thinking about unseen matters. Islam urges Muslims to contemplate the universe around them to argue for the oneness of Allah. As their belief in Allah increases, their relationship with Allah strengthens. Islam encourages humans to contemplate what benefits them and prevents them from contemplating matters of the unseen, which are beyond the domain of reason and can only be understood by divine revelation. 7) Islam teaches a person to live a life of rationality, believe in Allah's decrees wisely, and repel the downfall of fate with another destiny. 8) The Prophet (peace be on him) made it clear that we must follow objective scientific thinking and

must avoid following emotions and wishful thinking. This will lead us to correct solutions to our problems. 9) Another source is the use of critical thinking. The human mind is a God-gifted creative tool. One of its great functions is to scrutinize ideas and examine narrations. 10) One must not preoccupy oneself with negative thoughts. If people fill their minds with negative thoughts, this will make them tired, exhaust their force, weaken their determination, and distract them from the right path. 11) Another source is firmness in making a decision. The Prophet (peace be on him) encouraged firmness and not hesitating in making decisions, especially in critical situations, which need a quick decision after proper consultation.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إنّ القرآن والسنة هما مصدرا التلقي للمسلم، والسنة هي الشارحة والمُـبَيِّنة للقرآن الكريم، وهي النبع الأصيل لفهم كتاب الله تعالى، والنِّبراس القويم لحياتنا، والهَدْي العميم لِتعامُلاتنا، والمنهج السليم لسلوكنا، والبَلْسَم الرحيم لقلوبنا، والنور المستقيم لتفكيرنا، كيف لا، وهي وحي مِن الله تعالى، سبيل سعادتنا، وباب عزتنا، ودَربُ نجاتنا. والعقل هو الأداة الأُولى لِفهم الواقع المُعاش مِن حول الإنسان بكل تَقَلُّباته وتعقيداته، وهو الباب الأول لفهم نُصوص الوحي الكريم، وكلما كان المرء صاحِبَ عَقْلٍ، كان أكثر إدْراكاً للأمور، وأَحسن شخصيةً في التفاعل الإيجابي مع كل إيقاعات الحياة.

"فالواجبُ على العاقلِ أنْ يكون بما أَحيا عَقْلَه مِن الحكمةِ، أَكلَفُ[1] مِنْه بما أَحيا جَسدَه مِن القُوتِ[2] ، لأنّ قُوْتَ الأجسادِ المطاعم ، وقُوْتُ العقل الحِكَم ، فكَما أنّ الأجسادَ تموتُ عندَ فَقْدِ

1- أَتعَب وأَحرص، انظر: محمود الزَّمخشري، **أساس البلاغة** (بيروت: دار الكتب العلمية) ج 2 ص 144.

2- هو ما يَقُومُ به بَدَنُ الإنسانِ مِن الطعام، محمد الأَزْهَرِي، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية** (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ج 1 ص 261.

الطعام والشَّراب ، وكذلك العُقول إذا فَقَدَت قُوتَها مِن الحكمةِ ماتتْ "[3].

ويُلخِّص كل ذلك القاضي الفقيه إِيَاسُ بن معاوية رحمه الله بعبارة بديعة فقال: " مَن عَدَمَ فَضيلةَ العقلِ، فَقَدْ فُجِعَ بأَكرم أَخلاقِه "[4].

أهمية الموضوع

تأصيل فكري لاستخراج القواعد والأسس النبوية في تكوين العقلية الرشيدة.

تفعيل السنّة النبوية في بناء الشخصية المسلمة بكل جوانبها.

الاحتكام للسنّة عملياً في هذه القضايا الفكرية.

تعديل سلوك الفرد السلبي المرتبط بالعقل الناشئ مِن قناعات العقل وقراراته، من خلال تعديل آلية التعامل مع الأمور المادية والمعنوية.

الرد على الطاعنين في السنة النبوية، بأنها ليست محفوظة مِن التحريف.

أهمية البناء العقلي

يُعَدُّ عنوانَ شخصية المرء.

" يَزِينُ الفَتى في النَّاس صحة عَقْلِه ... وإنْ كان محظوراً عَلَيْهِ مَكَاسِبه

يَشينُ الفتى في الناس خِفَّة عَقْلِه ... وإنْ كَرُمَتْ أَعْراقه[5] ومَناسِبه[6]"[7].

يجعل المرء أكثر قدرةً على التصور الشامل للحياة.

3- محمد بن حِبَّان، **رَوضة العُقلاء ونُزهة الفُضلاء** (بيروت: دار الكتب العلمية) ص 18.

4- محمد الذَّهبي، **تاريخ الإسلام** (دار الغرب الإسلامي) ج 3 ص 374.

5- أصُول الإنسان، انظر: محمد ابن منظور، **لسان العرب** (بيروت: دار صادر) ج 10 ص 241 مادة عرق.

6- قَرابته ، انظر: علي بن سِيْدَة ، **المُحْكَم والمُحيط الأَعظم** (بيروت: دار الكتب العلمية) ج 8 ص 528 ، **والمُخَصَّص**، ج1، ص331.

7- ابن حِبَّان ، **رَوضة العُقلاء ونُزهة الفُضلاء**، ص18.

يتمتّع صاحبه بقدرة أعلى على تحليل المواقف والتجارب التي تمرّ به، واستثمارها في النفع الخاص والعام.

يُحفِّز صاحبه لمعالي الأمور.

يَغْدو صاحبه أكثر ضبطاً لسلوكه وانفعالاته السلبية، والتغيير الإيجابي في شخصيته. "سُئِل أعرابي عن العقل متى يُعرف؟ قال: إذا نَهاك عقلُك عمّا لا يَنْبغي، فأنت عاقِل"[8].

يُصبحُ المرء أكثر قدرةً على الفهم الصحيح، والاستنباط الدقيق في الشريعة وميادين الحياة الأُخرى (مع مُراعاة أصول كلّ عِلْم في ذلك).

وقد سُئل الإمام الفقيه عطاءُ بن رَبَاح عن أفضل مَا أُعطيَ العبدُ؟ فقَالَ: العقلُ عَن الله"[9].

يَمْتلك صاحبه مهارات متميّزة في إدارة حياته[10].

يُصبح صاحبه أكثر قوةً في شخصيته، لأنه يَعلم الخير فيعمل به، ويَعلَم الشر فيتجنبه، فعقلُه يَضبط حركته وشهواته ومُيولاته.

يقول العتبي رحمه الله: "العقل عقلان: عقلٌ تفردَ اللهُ بخلْقِه، وعقلٌ يَستفيده الرجلُ بأَدبه وتجربته، ولا سبيل إلى العقل المستفاد، إلا بصحة العقل المُــركَّب في الجسد، فإذا اجتمعا قَوَّى كلَّ واحدٍ منهما صاحبَه، تقويةُ النارِ في الظُّلمة نورَ البَصَرِ"[11].

ركن أساسي في زيادة الإيمان في قلب المسلم، لأنّ العاقل إذا عَلِم بِحُكْم الشَّرع في مسألةٍ

8- أحمد بن عبد ربه، **العقد الفريد** (بيروت: دار الكتب العلمية) ج1، ص169.

9- ابن حِبَّان، **رَوضة العُقلاء ونُزهة الفُضلاء**، ص18.

10- المهارة: هي إيجاد أكبر عدد ممكن من العوامل المتعلقة بمواقف أو فكرة ما طعمة، أمل، **هندسة التفكير**، ص40.

11- عبد الملك الثَّعالبي، **الشكوى والعِتاب** (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون) ص 198 رقم 562.

ما، بادر عقله لِتحفيزه للالتزام بِه، لأنّه أَدرَكَ وَأَيْقَن أنّ حياةَ القلب وسعادته، بالاستجابة لأَوامر الشرع، فهو يَرَى الخير الحقيقي في اتباع نور الشرع .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾(12).

محور أصيل للنهوض الحضاري في الأمّة الإسلامية.

فلا تغيير ولا تقدم للأُمّة الإسلامية إلا بتغيير جذري ، لِما في داخلها مِن رواسب جاهلية، وأمراض اجتماعية .

قال الله تعالى :﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(13).

الدراسات السابقة

لم تَحظَ دراسة العقل في السنة النبوية إلا في نطاق نادر، وقد كُتِبَ في هذا الموضوع الهام:

بحث "العقل في السنة النبوية دراسة تحليلية تربوية"، إسماعيل رضوان، عليان الحولي.

بمجلة الجامعة الإسلامية، غزة / م 13 ع 2 ـ 2005م، ص 261 ـ 299.

وقد تناولت الدراسة تعريف العقل، وأهمية العقل، ومكان العقل، تفاوت الناس في العقل، مُزيلات العقل، حدود العقل، آليات ووسائل تنمية العقل في السنة النبوية.

وقد ذَكَرَ الباحثان: خمسة أمور فقط لتنمية العقل في السنة النبوية، السؤال والحوار والشورى وتكرار المعلومة وضرب المثل.

كتاب **العقل المسلم والبُعد الحضاري**، د. عماد الدين خليل، تناول استعادة دورنا

12- سورة الأنفال، الآية: 24.

13- سورة االرعد، الآية: 11.

الحضاري، والأرضية (تهيئة العالَم لاستقبال الإنسان)، والإنسان، الدِّين، الملامح الأساسية للحضارة الإسلامية، نحو تكنولوجيا إسلامية، وهو بعيدٌ عن صُلْب هذه الدراسة عند القراءة في الكِتاب.

عوامل بناء العقل في السنة النبوية

حَفلَت السنّة النبوية بالعديد من الأُسس والقواعد التي يُمكن اعتمادها، لبناء عقلية ناضجة في شخصية المُسلم، تُساهم في أن ينطلق في حياته، بكلّ تميّز وريادة وتألُق، إذا ما فهمها حقّ الفهم ومارسها في حياته بشكلٍ صحيح، ومن هذه الأسس العلمية التي جاءت السنة النبوية ببيانها والتركيز عليها :

العِلْم

كان منذ نزوله يحثّ على العلم، باعتباره الأداة الوحيدة للنهوض والتغيير في النفس والمجتمع، فكان أول ما نزَل قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾[14] ، وأتت السنّة النبوية تؤكّد هذا الأمر عملياً، فقد قال عبد الله بن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: " كَانَ نَاسٌ مِنَ الْأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِدَاءٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِدَاءَهُمْ أَنْ يُعَلِّمُوا أَوْلَادَ الْأَنْصَارِ الْكِتَابَةَ "[15].

وهو أمر لا يقتصر على الرجال، بل هو للنساء، فها هي الشِّفَاء بِنْت عَبْدِ الله تقول: دَخَلَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا عِنْدَ حَفْصَةَ فَقَالَ لِي: " أَلَا تُعَلِّمِينَ هَذِهِ رُقْيَةَ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتِيهَا الْكِتَابَةَ؟ "[16].

فالعلم هو الغذاء النافع لبناء العقلية الواعية، الناقدة بعلمٍ ودليل. وهو الشريان الذي

14- سورة العلق، الآية: 1.

15- أحمد بن حنبل، **المسند**، رقم الحديث: 2216، ج 4 ص92 .

16- نفس المصدر، رقم الحديث: 27095، ج 4 ص 46 .

يُغذِّي العقل، ليَنْظُرَ للأُمور ببصيرةٍ ونور وهداية. فينعكِس ذلك عليه تألُّقاً وإبداعاً في شخصيته.

التفكير والتدبّر والاستنباط

التفكير بوابة الإبداع والتميّز، وهو قائد سفينة البناء والتقدُّم، ومحرّك الهمم نحو السموّ والإصلاح، و "الفِكْرةُ قُوّة مُطْرِقةٌ للعِلْم إلى المعلوم"[17]، ومن أدوات التفكير السؤال، الذي كان يُمارسه النبي صلى الله عليه وسلّم مع أصحابه، تحفيزاً على شحذ العقول، وإمدادها بمعلوماتٍ جديدة، بوسيلة شيّقة وجذّابة، يقول عبد الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا: " كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: " أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ تُشْبِهُ أَوْ: كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ لاَ يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا، وَلاَ وَلاَ وَلاَ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ " قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ لاَ يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هِيَ النَّخْلَةُ" فَلَمَّا قُمْنَا قُلْتُ لِعُمَرَ: يَا أَبَتَاهُ، وَالله لَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكَلَّمَ؟ قَالَ: لَمْ أَرَكُمْ تَكَلَّمُونَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ أَوْ أَقُولَ شَيْئًا، قَالَ عُمَرُ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا"[18].

ولأهميّة التفكير في الإيمان والحياة، رَبّى النبي صلى الله عليه وسلم ولقد حذّر من قراءة القرآن الكريم في أقل مِنْ ثلاث ليالٍ، حتى لا تكون قراءةً بلا تفكّر ولا تدبّر، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:" لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآية كلها" [19][20].

التحرّر من قيود التقليد وعدم الانسياق وراءَ كلّ أمر

17- الراغب الأصفهاني، **مفردات القرآن** (بيروت: دار القلم) ص643، ومعنى مُطرقةٌ: طريقاً.

18- محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: 4698 (دار طوق النجاة) ج 6 ص 96.

19- سورة آل عمران، الآية: 190.

20- محمد بن حبان، **صحيح ابن حبان** (بيروت: مؤسسة الرسالة) ج 2 ص 387 .

التقليد سياج على الفكر، وحصارٌ على الإبداع، وقتل للنموّ والتجديد، والنفس الخاملة الضَّحْلَة في العلم، الراقدة عن معالي العزّة، تسْلِم نَفْسَها طواعيةً لبراثن عدوّها[21]، وهذا ما حذرت منه السنّة النبويّة، لما له من الضرر الوبيل على النّفس المُسلمة[22]، يقول النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ"، قُلْنَا يَا رَسُولَ الله: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى قَالَ: "فَمَنْ"[23].

ولهذا فَقُه الصحابة ذلك جيداً، فحذروا مِن سُلوك طريق التبعية والتقليد بلا نورٍ ولا هُدى، فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:" اغْدُ عالماً، أو مُتعلِّماً، ولا تَغْدُ إِمَّعَةً فيما بين ذلك"[24].

وكان يقول رضي الله عنه: "ائْتُوا الأمرَ مِن تَدَبُّرٍ، ولا يَكُونَنَّ أَحدُكمْ إِمَّعَةً، قالوا: وما الإِمَّعة؟ قال: الذي يَجري بكلِّ رِيحٍ"[25]. يَتَّبع كل كلام وخِطاب، بلا تَأَمُّلٍ به ولا نَقْدٍ ولا بصيرة!

وزاد الأَمرَ أكْثر بياناً وتوضيحاً فقال رضي الله عنه: " كُنَّا نَدْعُو الإِمَّعَةُ في الجاهلية الذي يُدْعَى إلى الطعام، فَيَذْهَبُ معه بآخَرٍ، وهو فِيْكُمْ المـُحْقِبُ دِيْنَه الرِّجالَ، الذي يَمْنَحُ دِينَه غيرَه، فِيما يَنْتَفِعُ به ذلك الغَيْرُ في دُنياه، ويَبْقَى إِثْمُهُ عليه "[26].

فقد أراد رضي الله عنه:" الذي يُقَلِّدُ دِينَه لكُلِّ أَحدٍ. أيْ: يَجْعَلُ دِينَه تَابِعًا لِدِينِ غَيْرِهِ، بِلَا

21- البراثن: أظفار ومخالب الأسد، ابن منظور، **لسان العرب**، ج13، ص50، مادة: برثن.

22- الوبيل: الشديد، ابن منظور، **لسان العرب**، ج11، ص718 مادة: وبل.

23- محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: 3456، ج 4 ص 169.

24- أحمد الطَّحاوي، **شرح مُشْكِل الآثار** (بيروت: مؤسسة الرسالة) ج 15 ص 407.

25- أبو داود، **الزهد** ، ص140 ـ 141.

26- الطَّحاوي ، **شرح مُشْكِل الآثار**، ج 15 ص408 .

حُجَّةٍ وَلَا بُرْهانٍ ولا رَوِيَّة "[27].

"يَعْنِي المُتَّبع دِيْنه آراءَ الرجال مِن غَيْر نَظَرٍ فِي دليلٍ، ولا طلب لحُجَّةٍ، وَهُوَ مأخوذٌ مِن الحَقيبة الَّتِي تُعَلَّقُ على الفَرَس؛ فكذلكَ هذا يُعَلِّقُ أَمْرَ دِينه على غيره، تقليدًا لا اجتهادًا "[28].

" وكانوا يَسُمُونه[29] الأعمى الذي لا بَصيرةَ له ، ويُسَمُّون المُـــقَلِدِين أَتباع كل ناعِق، يَميلون مع كلِّ صائحٍ ، لم يَسْتضيئوا بنور العلم ، ولم يَرْكَنُوا إلى رُكْنٍ وَثيقٍ "[30].

فقد ألغى ما وهبه الله تعالى مِن العقل والتفكير، والنَّظَر في عواقب الأمور، وصارت شخصيته تابعة ومُنقادَة لكل مُفكِّرٍ وناعِقٍ.

وقال رضي الله عنه فيمن يسير مع الناس كيفما ساروا، ويقول بما قالوا، ويُلْغي عَقلَه وتفكيره وشخصيته تقليداً للآخَرين: " لا يكونُ أَحدُكمْ إِمَّعَةً، قالوا: وما الإِمَّعَةُ يا أَبا عبدِ الرَّحمنِ؟ قال: يقول: إِنِّمَا أنا مع النَّاسِ إِنِ اهتَدَوُا اهتَدَيْتُ، وإِنْ ضَلُّوا ضَلَلتُ، أَلا لَيُوَطِّنُ أَحدُكُمْ نَفْسَهُ على إِنْ كَفَرَ النَّاسُ أَنْ لَا يَكْفُرَ"[31].

وقال رضي الله عنه:" إِذا وَقَعَ النَّاسُ في الشَّرِّ، فَقُلْ: لا أُسْوَةَ لي بالشَّرِّ "[32].

كل هذا لبيان خُطورة التقليد، وآثاره السيئة على شخصية المسلم، وإلغاءٌ لنعمة التفكير والإرادة لديه.

27- ابن الأثير المبارك، **النهاية في غريب الحديث والأثر** (بيروت: المكتبة العلمية) ج 1 ص 412 ، وابن منظور، **لسان العرب**، ج1، ص327.

28- أحمد الخطيب البغدادي، **التطفيل وحكايات الطُّفَيْلِيِّين** (بيروت: دار ابن حزم) ص 50.

29- الإِمَّعَة.

30- محمد ابن القيم، **إعلام المُوقعين عن ربِّ العالَمين** (بيروت: دار الكتب العلمية) ج 2 ص 184.

31- سليمان الطبراني، **المعجم الكبير**، ر قم الحديث: 8765 (مصر: مكتبة ابن تيمية) ج 9 ص 152.

32- نفس المصدر، رقم الحديث: 8640، ج 9 ص 128.

وقال الإمام أبو داود رحمه الله: " قلتُ لأحمد: الأَوْزَاعِي هو أَتْبَعُ مِن مالك؟ قال: قال الإمام أحمد: " لا تُقَلِّد دِينكَ أَحداً مِن هؤلاء،[33] ما جاءَ عن النّبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فَخُذْ به، ثم التابعين بَعْدُ الرَّجُلُ فيه مُخَيَّرٌ "[34].

"وَأي شَرَفٍ يُسامي شَرَفَكَ، أَو فَخرٌ يُداني فَخْرَكَ، وَأَنتَ تَأْخُذُ دِينك عَن الله وَعَن رَسُوله، لَا تُقلِّد فِي ذَلِك أحدًا، وَلَا تَقتدي بقولِ رجلٍ، وَلَا تَقِف عِنْدَ رَأْيٍ، وَلَا تَخضع لغير الدَّلِيل، وَلَا تُعَوِّل على غيرِ النَّقْد[35] "(36).

الوَالِدَان

هُما بوّابة العِلْمِ الأُولى للإنسان، وهُما مَوْقِد التحفيز نحو معالي الأمور، والتنشئة السوية على القيم والأخلاق، وحين يَرى الولد ذكراً لذلك إلى مخزونه العلمي، وسيكتسبه في سلوكه الذي سيمارسه مع أقرانه ومجتمعه، ولكن حين يكون للوالدَيْن أو أحدهما عقلٌ رشيد، ويريان أنّهُ يُمكن أن يتغذّى الولد وينضج في شخصيته، ويكتسب الحكمة والعقل الرشيد ممّن هو أقدر فيها منهما، فإنّهما سيوجهان الولد إلى ذلك القدوة، لينهَل منها العلم والحكمة، وهما مكوّنات العقل الرشيد، فقد جاء

33- يَقْصِد العلماء، ومُرادهُ رحمه الله تعالى، لطالب العِلْم القادر على النَّظر في الدليل، والترجيح بين أقوال العلماء بالقواعد والأُصول العلمية، أمّا عامّة الناس فيجب عليهم تقليد العلماء الرَّبانيين، لأنهم لا يَملِكُون أدوات الترجيح بين الأدلة الشرعية، لقوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ النَّحْل 43 والأنبياء 7

ويؤكد هذا أنّ الإمامَ أحمد رحمه الله قال:" من زعم أنّه لا يَرى التقليدَ، ولا يُقَلِّد دِيْنَه أَحدًا، فهو قول فاسق عندَ الله ورسول صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنّما يريدُ بذلك إبطالَ الأثر وإبطال العِلْم والسُّنَّة، والتفرد بالرأي والكلام والبدعة والخِلاف "، محمد أبو يعلى، **طبقات الحنابلة** (بيروت: دار المعرفة) ج 1 ص 31، و**مسائل حرب**، ج3، ص978.

34- أبوداود، **مسائل الإمام أحمد رواية أَبي داود السجستاني** (مصر: مكتبة ابن تيمية) ص 369.

35- يقصِد: لا تَقبل الكلام بغير تفكيرٍ فيه، وأنّه ليس فيه ما يُخالِف الشرع.

36- محمد الشوكاني، **أدب الطلب ومُنتهى الأدب** (بيروت: دار ابن حزم) ص 120.

عن أَنَسٍ رضي الله عنه ، أنه قَالَ: " قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَأَنَا ابْنُ عَشْرٍ، وَمَاتَ وَأَنَا ابْنُ عِشْرِينَ، وَكُنَّ أُمَّهَاتِي يَحْثُثْنَنِي عَلَى خِدْمَتِهِ "[37].

القدوة

راية للعاملين، وحُجّة على المُــتقاعسين، ومُحَفّزاً للمجتهدين الصادقين، ونبراساً للسائرين، وبصمة صِدْقٍ من الداعية للمَدْعُوّين، على الانسجام والوِئام بين قوله وفعله، ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم خير قدوة، أَلَمْ تَرَ إلى قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[38] وقد رأى الصحابة رضي الله عنهم هذه القدوة الحسنة بأعينهم وأحبّوها بقلوبهم، فقد قال سَعْدِ بْن هِشَامٍ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَتْ: " كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ "[39].

وحينما يَرى المسلمُ القدوةَ فيها الحِلْم والاتزان الانفعالي والحِكْمة وعدم الاستبداد بالقول أو الفِعْل، فهذا عنوان على العقل ورجحانه، وسيستفيد من ذلك في شخصيته، ويُوقِظه في مواقفه التي ستمرُّ به آناءَ الليلِ وأطْراف النّهار.

الصحبة

هي عنوان الشخصية، ومستودعُ أسرارِ الإنسان، والمحرِّك الفعّال نحو السلوك، فعَنْ أبي موسى رَضِيَ الله عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ المِسْكِ وَكِيرِ الحَدَّادِ، لاَ يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ المِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ، أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ،

37- مسلم بن الحجاج القشيري، **صحيح مسلم**، رقم الحديث: 2029 (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ج 3 ص 1603.

38- سورة الأحزاب، الآية:21.

39- أحمد، **المسند**، 42 183 رقم 25302 .

وَكِيرُ الحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ، أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً"[40]، وخير ما يَمنحه المرء لصاحبه، إنما هو عِلمه ودِينه وتجربته، وبقدر ما تَحلى بذلك، دلّ على قوّة ورجاحة عقله.

"والذي يَزداد به العاقل مِن نَماءِ عَقلِه هو التقربُ مِن أَشْكاله والتباعد مِن أضداده.

قال أبو مالك الغزي: جالسوا الأَلِبَّاءَ أصدقاءَ كانوا أو أعداءَ، فإنّ العقولَ تُلَقِّحُ العقولَ.

قال أَبُو حاتم:[41] مُجالسة العقلاء لا تخلو مِن أَحَدِ مَعنيين: إمّا تَذَكُّر الحالة التي يَحتاج العاقلُ إلى الانتباهِ لها ، أو الإفادة بالشيءِ الخطير الذي يَحتاجُ الجاهل إلى مَعرفتها .

فقُرْبُ العاقلِ غُنْمٌ لأَشْكاله، وعِبْرَةٌ لأَضْدادِه على الأحوالِ كلِّها، ولو كان للعقل أبوان لكان أحدُهما الصبرُ، والآخَر التثَبُّت"[42].

الشورى

الشورى كاشفة لعقول الرجال، وما يتنتّعون بهِ مِنْ حِنْكَةٍ وكَياسَة، وفيها تتلاقح عقول الرِّجال، وتتبادل الأفضل من الأفكار والرُّؤى، وقد حثّ القرآن الكريم عليها، لعظيم فضلها، فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[43] وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بممارستها مع أصحابه الكرام رضي الله عنهم ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[44] وقد استجاب النبي صلى الله عليه وسلم لذلك فشاور الصحابة في عددٍ من المواقف،

40- محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: 2101، ج 3 ص 63.

41- ابن حِبَّان البُسْتي.

42- ابن حبان، **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، ص 25 ـ 26 بتصرف.

43- سورة الشورى، الآية: 38.

44- سورة آل عمران، الآية: 159.

فمنها مشاورته أصحاب بدر[45] وفي أسرى بدر[46] وأُحُد[47] وعامَ الحُدَيْبِيَة[48].

قال عبد الملك بن مروان رحمه الله: " لأنْ أُخْطِئ وقد استشرتُ، أَحَبُّ إليّ مِن أنْ أُصيبَ وقد اسْتَبْدَدْتُ"[49].

التحرُر من الأوهام والخرافات

حرص الوحي في القرآن والسنّة على تحرير وتنظيف عقل المُسلم من الأوهام التي لا تستند لدليل علميّ صحيح، وقد وضع القرآن هذا الأمر بصورة جليّة: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[50]، وهو بهذا يَهْدم كلّ قضية لا تستند لدليل علمي صحيح، وجاءت السنّة تؤكّد ذلك، يقول المُغِيرَةُ بن شُعْبَةَ رضي الله عنه : " كَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ، فَقَالَ النَّاسُ: كَسَفَتِ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ فَصَلُّوا، وَادْعُوا اللهَ"[51] فالسُنن الكونيّة الموجودة لا تتأثّر ولا تتغيّر لحياة أو ممات عظيم، وقد بادر النبي صلى الله عليه وسلم لبيان ذلك الوهم الذي حَصَل في أذهان بعض الصحابة رضي الله عنهم، حتّى لا يتشكّل منه تصوّر ذهني ينعكس في نظرتهم، مما يسبِّب خللاً كبيراً في ممارستهم وسلوكهم في هذه الحياة الدّنيا.

45- مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، رقم الحديث: 1779، ج3، ص1403.

46- نفس المصدر، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، رقم الحديث: 1763، ج3، ص1383.

47- محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، كتاب الاعتصام بالكُتب والسنّة، ج9، ص91.

48- السنن الكبرى، **النسائي**، رقم الحديث: 8528، ج8، ص6.

49- الزَّمخشري، **ربيع الأبرار ونصوص الأخيار** (بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1412هـ) ج 3 ص 446.

50- سورة البقرة، الآية: 111.

51- محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: 1043، ج2، ص34.

ويزيد النبي صلى الله عليه وسلّم الأمر جلاءً، حين يُبيِّن أنّ الكاهن كاذبٌ في ادّعائه لعِلْمِ الغيب، وأنّ ما يَذْكره من بعض الأمر الذي قد يُصيب أحياناً، وراءهُ سرٌّ، يقول أبو هُرَيْرَة رضي الله عنه : "إِنَّ نَبِيَّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِذَا قَضَى الله الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ – وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ – فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ"[52][53].

عدم إشغال العقل بالتفكير في الأمور الغيبيّة

حث الشرع على التفكر بعقله في الكون مِن حوله ليقوده للإيمان بوحدانية الله تعالى ، وبعد إيمانه ليزداد إيمانه، فيتألّق ويَسمو في علاقته مع الله تعالى ، ويَتميَّز في علاقته مع الآخرين .

ومِن روعة دِيننا أنه أَطلق للعقل عنان التفكر فيما يَنفعه، ومَنعه مِن التفكر في أمور الغيب التي لن يَصِلَ فيها إلى بيانٍ ، فوق ما بيَّنه الوحي المـُطَهَّر .

يقول أَبو هُرَيْرَة رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ الله؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِالله "[54][55].

52- محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: 4800، ج 6 ص 122.

53- سورة الأنفال، الآية: 24.

54- مسلم، **صحيح مسلم**، رقم الحديث: 212، ج 1 ص 119.

قال الطَّيبي رحمه الله: "إنّما أُمِرَ بالاستعاذةِ والاشتغال بأمْرٍ آخَر، ولَمْ يُؤْمَر بالتأمُّل والاحتجاج، لأنّ العلْمَ باستغناء الله جَلَّ وعَلا عن المـُوْجِدِ أمْرٌ ضَروري ، لايَقْبَل المناظرة ، ولأنّ الإسْتِرْسال في الفِكْر في ذلكَ، لا يَزيدُ المرء إلا حَيْرةً ، ومَنْ هذا حَالُهُ ، فلا عِلاجَ له إلا المـَلْجأ إلى الله تعالى والاعتصام به "[56]. فالعقل إذا اشتغل بالغيبيات عُموماً ، لمْ يَحْصد إلا الشكّ والوَهْم وضياع الوَقْت.

الأخْذ بالأسباب أمرٌ أساسي للنُهوض في الحياة

جَعَلَ اللهُ الحياةَ الدُّنْيا قائمةً على سُنن وقواعد، من أخذ بها بقوّةٍ نَهَضَ وارتقى، ومَنْ أهْمَلها خَسِر وانْهَزَم، والأخْذُ بالأسباب أمرٌ شرعيّ، ومطلبٌ عقليّ، يقول عَمْرو بْن أُمَيَّةَ : قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أُرْسِلُ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّلُ؟ قال: "اعقلها وتوكل"[57] ، إنّ المسلم حين يُسخِّر هذه القاعدة النبوية في شؤون حياته ، يَنْطلق في رِحاب الحياة مُنتجاً ومُبدعاً ومُتألقاً، مالكاً أسباب القوّة الماديّة ليوظّفها في إعلاء شأن الدِّيْن، مُستعيناً في حصول كلّ ذلك على الله تعالى.

"مِن العقلِ أنْ تَحتاطَ فِيمَا ولِيْتَه... وتَحْسِمُ مَا تَخْشَاهُ والأَمْرُ مُمْكِنُ"[58].

قال الصحابي الجليل أبو مُوسَى رَضِيَ الله عَنْهُ: "احْتَرَقَ بَيْتٌ بِالْمَدِينَةِ عَلَى أَهْلِهِ مِنَ اللَّيْلِ، فَحُدِّثَ بِشَأْنِهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنَّ هَذِهِ النَّارَ إِنَّمَا هِيَ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ"[59].

55- سورة الأنفال، الآية: 24.

56- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج6، ص341.

57- ابن حبان، **صحيح ابن حبان**، رقم الحديث: 731، ج 2 ص 510.

58- ابن حبان، **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، ص 277.

59- البخاري، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: 6294، ج 8 ص 65، ومسلم، **صحيح مسلم**، رقم الحديث: 2016، ج 3 ص 1596.

وقال الصحابي الجليل أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ، وَلاَ هَامَةَ(60) وَلاَ صَفَرَ(61)، وَفِرَّ مِنَ المَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ"(62).

وقال الصحابي الجليل سَعْد بن أَبي وَقَّاص رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا"(63).

فهذه الأحاديث النبوية الصحيحة ممتلئة بوجوب أَخْذِ المسلم بالأسباب المادية، التي تقوم عليها الحياة، لدفع الشرور عن المسلم، وجعل حياتِه أكثر راحةً وطُمأنينة، واستقراراً وسعادة.

فهذه الحياة الدنيا دار قائمة على الأسباب، والتوكل على الله الوهَّاب جَلَّ جَلَالُه، فكلما قَوِيَ عقل المسلم وقَوِي إيمانه، تجنب أسباب الهلاك، استجابةً لأَمر الله تعالى: ﴿ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(64)، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾(65)، وبادَرَ للأَخذ بالأسباب المباحة، للارتقاء بحياته الدنيوية، والفوز في حياته الأُخْرَوية.

ترك الأَماني والتَحَسُّر على الماضي

يُعلِّمُ الإسلام المرءَ على أن يَعيش الحياة بواقعية، وأن يؤمِن بقضاء الله تعالى للأمور

60- الهامة: اسْمُ طائرٍ، كانوا يَتَشَاءَمُون بها. وهي مِن طيرِ الليلِ، ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج5، ص283.

61- " كانت العربُ تَزْعُمُ أنّ في البطن حية، يُقال لها الصفر، تُصيبُ الإنسانَ إذا جاعَ وتُؤذيه، وأنها تُعْدِي، فأَبْطَلَ الإسلامُ ذلك. وقيل: أراد به النَّسِيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، وهو تأخيرُ المُحَرَّم إلى صَفَر، ويَجعلون صَفَرَ هو الشهر الحرام، فأَبْطَلَه "، ابن الأثير ، **النهاية في غريب الحديث والأثر** ، ج3، ص35 .

62- البخاري، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: 5707، ج7، ص126.

63- نفس المصدر، رقم الحديث: 5728، ج 7 ص 130، و**صحيح الإمام مسلم**، ج4، ص1738، رقم الحديث:2218.

64- سورة البقرة، الآية: 195.

65- سورة النساء، الآية: 71.

بحكمة، وأنْ يَدفع القدر النازل بِقدرٍ آخر، وِفق شرع الله تعالى.

لكنه يُربيِّه على عدم البكاء الماضي باستمرار، وجَرّ الحسرات والعويل عليه، فهناك بلاءٌ إذا وقع لا يُمكن تغييره أَبداً، كوقوع الموت، فهو قد انقضى ومضى، ولن يَعود مرة أُخرى كما كان.

قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "المؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قدر الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ "(66).

لقد أَمَرَه النَّبِيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسلم "بالحِرْصِ على ما يَنْفَعه والاستعانة بالله، ونَهاهُ عن العَجْزِ الذي هو: الاتكالُ على القَدَر، ثم أَمَرَهُ إذا أَصابَه شيءٌ، أنْ لا يَيأسَ على ما فاتَه، بل يَنْظُر إلى القَدَر ويُسَلِّمَ الأمرَ لله، فإنه هُنا لا يَقْدِر على غير ذلك، كما قال بعضُ العقلاء: الأمورُ "أمران"

أَمْرٌ فيه حِيلة، وأَمْرٌ لا حيلةَ فيه، فمَا فيه حيلةٌ لا يَعْجَز عنه، وما لا حيلةَ فيه لا يَجْزَع مِنْه"(67).

فقد "أَمَرَ النبي صلى الله عليه وسلم بحرص العبدِ على ما يَنفعه، والاستعانة بالله، ونهاهُ عن العَجزِ، وأنفعُ ما للعبدِ طاعةُ الله ورسوله، وهي عبادةُ الله تعالى. وهذان الأصلان هما حقيقةُ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ونهاهُ عن العَجْز وهو: الإضاعةُ والتفريطُ والتَوَاني. كما قال في الحديث الآخَر: "الكَيِّسُ مَن دَانَ نَفْسَه ، وعَمِلَ لما بعدَ الموتِ ، والعاجِزُ مَن أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاها، وتَمَنَّى على الله الأَماني"(68)(69).

66- مسلم، **صحيح مسلم**، رقم الحديث: 2664، ج 4 ص 2052.

67- ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** ، ج 8 ص 285 .

68- الترمذي، **سنن الترمذي**، رقم الحديث: 2459، ج 4 ص 219، وقال :" هذا حديث حَسَن "، وكذلك قال البغوي، **شرح السُّنَّة** ، ج 14 ص 308 ، وضعفه ابن القَيْسَراني، **ذَخيرة الحفَّاظ**، ج 4 ص 1928 ، وابن حجر ، **إتحاف المَهَرة**

" والكَيِّسُ مَن كان بالحِيَلِ أَفْطَنُ ، وعليه أَقْدَرُ ، ولا سِيما في الحرب فإنها خُدْعَة ، والعَجزُ كلُّ العَجْزِ تَرْكُ هذه الحيلة. والإنسان مَندوبٌ إلى استعاذته بالله تعالى مِن العَجْزِ والكسل؛ فالعَجْز : عدم القُدْرة على الحيلةِ النَّافعة. والكسلُ عدمُ الإرادةِ لِفعلها؛ فالعاجِز لا يَستطيع الحِيْلة، والكَسْلان لا يُريدُها. ومَن لَمْ يَحْتَلْ وقد أَمْكَنَتْه هذه الحيلة ، أَضاعَ فُرْصَتَه ، وفَرَّطَ في مصالحه، كما قال:

إذا المرءُ لَمْ يَحْتَل وقَدْ جَدَّ جِدُّهُ ... أَضَاعَ وقاسَى أَمْرَهُ وهُوَ مُدْبِر"[70].

فركوب الأماني يُغْرِق صاحبَه في المَهاوِي والرَّدى، ويَجعله يعيش أحلام اليقظة، فيستمِر في الكَبْوَة والبَطالَة، فهو يَنتقل في عالَمَ خَيالاته وأحلامه، مِن حالٍ لآخَر، ويَعيش دَورَ المستقبل الذي لَمْ يَطْرُق بابَه إلى الآن ، وربما لن يَطْرُقَه أَبداً !!.

ويَحسُن في هذا المقام بيانُ الفَرْق بين الأَمل والأُمنية: "فالأملُ يَتعلقُ بما يُرْجَى وجُوده. والأُمْنِية: قد تَتعلَّق بما لا يُرْجى حُصوله. كما يَتمنى العاجزُ المراتبَ العالية.

والأماني الباطلة: هي رءوس أموال المفاليس. بها يَقْطَعون أوقاتَهم ويَلْتَذُّون بها، كالْتِذَاذِ مَن زالَ عقلُه بالمسْكِر، أو بالخيالات الباطلة.

ولا يَرضى بالأماني عن الحقائقِ ، إلا ذَوو النُّفوس الدَنيئة السَّاقطة. كما قيل:

واتْرُك مُنَى النَّفْس لا تَحْسَبهُ يُشْبِعُها ... إنّ المنى رَأْسُ أَموالِ المفاليس.

وأُمْنِيَةُ الرجلِ تدلُ على عُلُو هِمَّتِه وخِسَتِهَا"[71].

بالفوائد المبتكرة مِن أَطراف العَشَرَة ، ج6، ص177، والألباني ، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأَثرها السيئ في الأُمَّة، رقم الحديث: 5319، ج11، ص499، أحمد، المسند، رقم الحديث: 17123، ج28، ص350.

69- ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، ج 10 ص 506 .

70- ابن القيم، إعْلام الموقعين عن ربِّ العالَمين، ج 3 ص 261 بتصرف يسير.

71- ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج 3 ص 93 ـ 94 باختصار.

"والواجب على العاقلِ أنْ يَجتنبَ أشياءَ ثلاثة: فإنها أَسرعُ في إفسادِ العقلِ مِن النَّار في يَبَيس العَوْسَج، الاستغراقُ في الضحك، وكثرة التمني، وسُوء التثبُّت، لأنّ العاقلَ لا يَتكلَّف مالا يُطيق، ولا يَسْعى إلا لما يُدْرَك ، ولا يَعِد إلا بما يَقْدِر عَلَيْهِ، ولا يُنْفِق إلا بِقَدْر مَا يَسْتفيد، ولا يَطْلب مِن الجزاءِ إلا بِقَدْر مَا عندَه مِن الغَنَاء[72] ، ولا يَفْرَح بما نالَ إلا بما أَجْدَى عَلَيْهِ نَفْعه مِنْهُ"[73].

قال الإمام عطاء بن رباح: "أَهدى أميرٌ مِن الأُمراء إلى الكعبة مائة وَسَقٍ[74]، ما بين كِسْوَةٍ وطِيْبٍ، ودراهمَ ودنانيرَ، وعَبيدَ خَدَماً للكعبة ، فقلتُ لابنِ عمر: ما رأيتُ كاليومِ قطُّ هديةً أفخرَ ولا أفضلَ مِن هذه الهدية، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: " لَطَوافُ رَجُلٍ أُسْبوعاً بهذا البيت بِحُسْنِ عَقْلٍ، وصِدْقِ نيةٍ، أفضلُ مِن ذلك أضعافاً مما رأيتُ، ولأنْ أَرى حَبَشياً مُسَلْسَلاً عاقلاً ، أَحَبُّ إليَّ أنْ أَرَاهُ قليلَ العقلِ، قليلَ الوَرَعِ، يَتمنى على الله الأَماني "[75].

استخدام التفكير العلمي الموضوعي بعيداً عن العاطفة

مِن طبيعة العِلْم الصحيح أنّه حياديّ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلاَمًا أَسْوَدَ، وَإِنِّي أَنْكَرْتُهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟"، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: "فَمَا أَلْوَانُهَا؟"، قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: "هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟"،[76] قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا، قَالَ: "فَأَنَّى تُرَى ذَلِكَ جَاءَهَا"، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، عِرْقٌ نَزَعَهَا،[77] قَالَ: "وَلَعَلَّ هَذَا عِرْقٌ

72- النَّفْع والغِنَى، ابن منظور ، **لسان العرب**، ج15، ص 136 ـ 138 .

73- ابن حبان، **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، ص23 .

74- وَزْنُ خَمس مائَة رَطْلٍ ، ابن دُرَيْد ، **جمهرة اللغة** ، ج2، ص1184 .

75- الفاكِهي، **أخبار مكة**، ج1، ص192.

76- الذي يَضْرِب إلى الخُضرة ، كلون الرماد ، وقيل : غبرة تضرب إلى السواد ، القاضي عياض ، **مشارق الأنوار**، ج 2ص283 .

77- يُقال نَزَعَ إليه في الشَّبَه إذا أَشبهه ، والعِرْق الأَصْل ، كأنّه نزع في الشَّبَه إلى أَجْداده مِن جِهة الأب أو الأم، ابن الجوزي،

نَزَعَهُ"، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُ فِي الِانْتِفَاءِ مِنْهُ "[78].

لقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلّم قاعدةً، يجب استخدامها في حياتنا، أنّ التفكير العلمي الموضوعي في الأمر بعيداً عن العاطفة، يقودنا إلى الحلّ الصحيح الحيادي لمشكلتنا، فتصبح الحقيقةُ ماثلةً بين أيدينا، بلا ريب ولا شكّ. وبلغة العصر يمكن بيان كلام النبي صلى الله عليه وسلّم على النحو الآتي: يمكن من الناحية العلمية، أن يُنجِبَ الأسمرُ ولداً بلونٍ أشقر، حَسَبَ "قانون مِنْدِل الأول" – قانون انعزال العوامل الوراثية Segregation law of–، إنّ الصفات الوراثية تُحدِّد بعوامل وراثية، تُدْعَى الجِينات، وتكون هذه العوامل الوراثية بأزواج، وعند تكوين الجميتات، تنعزل هذه العوامل عن بعضها، حيث يَعْمَلُ كلّ جميت واحد منها، وتعود هذه العوامل إلى إزدواجها، عندما تُكَوّن الخلية المخصبة (Zygote)، وعندما يتزاوج أفراد لهم صفات متناقضة نقيّة (أي أحدهما بتركيب وراثي مُتَغلِّب والثاني مُتَنَحِّي)، يكون جميع أفراد الجيل الأول (f1) بصفة المُتَغَلِّب، ناتجَيْن: يكون ثلاثة منهم مُتَغَلِّبي الصفة، وواحد مُتَنَحِّي الصفة[79]، يعني 3:1، بنسبة 25٪.

استخدام التفكير الناقد للفِكرة

العقل أداة مُبدعة، أعطاها الله تعالى للإنسان، ومِن إحدى وظائفها العظيمة، النقد للأفكار وتمحيص الأخبار، وما يُريد الإنسان أن يقوم بقوله أو فِعله، حتى يسير على نور في حياته .

لكن تصيب الإنسان لَوثه، مِن فكرةٍ قوية أو شهوة عارمة، تَجعله لا يُحْسِن إعمال عقله فيما يُريد قوله أو فِعله.

كشف المُشكل مِن حديث الصحيحين، ص 891 .

78- محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، رقم 7314، ج 9 ص 101 .

79- فالكونر، **المدخل إلى الوراثة**، إعداد وترجمة: وليد خضير المراني، ص15 وما بعدها. وانظر: عائدة وصفي عبد الهادي، **مقدمة في علم الوراثة**.

قال أبو أُمَامَةَ رضي الله عنه: إنّ فتىً شابًّا أَتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ الله ، ائْذَنْ لي بالزِّنا، فأَقبَلَ القومُ عليه فَزَجَرُوه، وقالوا: مَهْ. مَهْ. فقال: " ادْنهْ، فَدَنا مِنْه قريباً ". قال: فَجَلَس قال: "أَتُحِبُّه لأُمَّك ؟" قال: لا. والله جَعلني الله فِدَاءَكَ. قال: "ولا النَّاس يُحِبُونَه لأُمَهَاتِهم". قال: " أَفَتُحِبَّه لابْنَتِكَ؟ " قال: لا. والله يا رسولَ الله جَعلني اللهُ فِدَاءَكَ قال: " ولا الناس يُحبونه لِبَنَاتِهم ". قال: " أَفَتُحِبُّه لأُخْتِكَ؟ " قال: لا. والله جَعلني اللهُ فِدَاءَك. قال: " ولا الناسُ يُحبونه لأَخَوَاتِهم ". قال: " أَفتُحِبَه لِعَمَتِكَ؟ " قال: لا. والله جَعلني اللهُ فِدَاءَك. قال: " ولا الناسُ يُحبونه لِعَمَّاتِهم ". قال: " أَفتُحِبَّه لِخالَتِكَ؟ " قال: لا. والله جَعلني اللهُ فِدَاءَكَ. قال: " ولا الناسُ يُحبونه لِخالاتهم ". قال: فوضَع يَدَه عليه ، وقال: " اللهم اغْفِر ذَنْبَه وطَهِّر قَلْبَه، وحَصِّن فَرْجَه " قال : فَلَمْ يَكُنْ بعدَ ذلك الفتى يَلتفت إلى شيءٍ "[80].

العاطفة الجَيَّاشة نحو الحرام، تُغطي على العقل، فلا يستطيع المرء رُؤية الأُمور على حقيقتها، ولا يُدْرِك سُوء وقُبْحَ ما تَطلُبه نَفْسُه، وخير ما يُزيل الغَشَاوة عن العقل، ويُعيد بوصلة التفكير السليم لِساره الصحيح، استخدام التفكير الناقِد، فهو تحريك للعقل، وإعْمالٌ للفِكْر، وتَبديد وتدمير للعاطفة السلبية، وتحصين للمرء مِن الانزِلاق في رذيلة .

إنّ هذه الأسئلة الممتلئة بالعقلانية، والمُـــفْعَمة بالنقد الداخلي لطلب الحرام، تُحاصِر الفكرة السلبية، وتُدَمِّر بُنيانَها في العقل، وتُزيل جُذُورها مِن القلب .

إنها تَجعل العقل يستيقظ مِن غَفلته، وتوقِظ جهاز الغيرة مِن كَبْوَتِه، وَتَحْرِق وسوسة الشيطان.

80- أحمد، المسند، رقم الحديث: 22211، ج 36 ص 545، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط:" إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح ".

البناء على اليقين لا على الشكّ والتخمين

الإقدام على الأفعال لابد أن يكون مُبنياً على اليقين أو غلبة الظن، فهذا يَجعل المرء يُقْدِم وهو على نور، ويسير بُخطى ثابتة، وعلى بصيرة ثاقبة.

وما أجمل قول رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ فِي بَطْنِهِ شَيْئًا، فَأَشْكَلَ عَلَيْهِ أَخَرَجَ مِنْهُ شَيْءٌ أَمْ لَا؟ فَلَا يَخْرُجَنَّ مِنَ الْمَسْجِدِ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا"(81).

فكثيراً ما تحدث الوسوسة في أمر الطهارة والصلاة والعبادات، لعدم سلوك المسلم لهذه القاعدة النبوية، في أنْ لا يبني تَصوراته الذِّهنية على الشكوك والأوهام والظنون، التي لا تقرّبه من الله تعالى، ولا تجعله يُتْقِن عبادتَه، على عكس ما يتصوّر، وهذه القاعدة تتعدّى أمر العبادات لكلّ أمور الحياة، فالأصل اليقين، لا الشكّ والتخمين.

عدم إشغال العقل بالأفكار السلبيّة

كثيراً ما يُطْلِق المرء لعقله حبل الأفكار السلبيّة نتيجة أمر يتخيّله ويظنّه، والسير في هذا الأمر يُتْعِبُ العقل، ويُنْهِكُ قُواهُ، ويَفتُّ من عزيمة الإنسان، ويُشتّت العقل في مسارات لا تُنْتِجُ خيراً.

قال أبو سَلَمَةَ رضي الله عنه: "إِنْ كُنْتُ لَأَرَى الرُّؤْيَا تُمْرِضُنِي، قَالَ: فَلَقِيتُ أَبَا قَتَادَةَ، فَقَالَ: وَأَنَا كُنْتُ لَأَرَى الرُّؤْيَا فَتُمْرِضُنِي، حَتَّى سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ الله، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ، فَلَا يُحَدِّثْ بِهَا إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِنْ رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلْيَتَعَوَّذْ بِالله مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّهَا، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ؟(82).

فالحديث يضع العقل في مساره الصحيح، أنّ هذه الأمور التي يراها المسلم في المنام

81- مسلم، **صحيح مسلم**، رقم الحديث: 362، ج 1 ص 276.

82- نفس المصدر، رقم الحديث: 2261، ج 4 ص 1772.

فتحزنُه، وتُكدّر صفوَ عَيْشه، عليه ألا ينهمك فيها تحليلاً وتأمُّلاً وتفكيراً، ولا يُشْغِل بها عقل إنسانٍ آخر، فليسَ لها رصيدٌ من الحقيقة، وهي قاعدة على المسلم أَنْ يسير عليها في كلّ دُروب حياته.

النظر للأُمور بطريقةٍ إيجابيّة:

الحياةُ دار ابتلاء، فيها الكَدَرُ والعَناء، والتّعب والشّقاء، قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(83) وقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾(84) وإذا استغرق المسلم تفكيره في البلاء النازل به، ضاق عيشه، وشقيت نَفْسُهُ، وجَهِدَ عقله، وضعُفَ عَزْمُه، وساءَ ظنّه بربِّه ومولاه، فجاء هذا الحديث، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "مَا يُصِيبُ المسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ"(85).

وقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ أَوِ الْمُؤْمِنَةِ، فِي جَسَدِهِ، وَفِي مَالِهِ، وَفِي وَلَدِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ"(86).

إنّه البلسم للجراح، والضّياء للعقل المسلم، ليغيّر من وِجْهة تفكيره، من التفكير في ذات البلاء وألمه ومعاناته، إلى التفكير والتأمُّل في عاقبة هذا البلاء، وأنّه خيرٌ، لأنّه يغسل المرء مِنْ أوساخ ذُنوبه، كما يغسل الماء البَدَنَ من أوساخه. وحينها يُصبح العقل في راحة، والقلب في طُمأنينة، والجسد يَخِفّ ألمه وتعبه.

83- سورة البقرة، الآية: 155.

84- سورة البلد، الآية: 4.

85- محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: 5641، ج 7 ص 114.

86- أحمد، **المسند**، رقم الحديث: 7859، ج 13 ص 248، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط:" إسناده حسن "، والألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، رقم الحديث: 2280، ج 5 ص 349.

وهذا ما فعلته أم المؤمنين أُمُّ سَلَمَةَ زَوْج النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقد قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ:"مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾(87)، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا "، قَالَتْ : فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ ، قُلْتُ : مَنْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ عَزَمَ اللهُ لِي، فَقُلْتُهَا: قَالَتْ: فَتَزَوَّجْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(88).

وقد كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تُخْبِرُ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه: "كان يُعْجِبُهُ الْفَأْلُ الْحَسَنُ "(89).

إنّ الحياة لا تتوقف عند مصيبة حَلَّت على العبد، ولا عند فقدان حبيبٍ للمرء، ولا لِذَهاب ماله، فكم مِن عبد فقد شيئاً مِن ذلك، أو كلَّ ذلك، لَمْ تتوقف الحياة عنده، ولكن لِحُسْن إيمانه، وقوة بصيرته وعقله، صبر وقاوم وبَدَأ مِن جديد، وتوكل على ربِّه تعالى، وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ به تعالى أنْ يُخْلِفَه خيراً مِمَّا أَخَذَ مِنْه.

وما أحسن ما قال القاضي شُرَيْح رحمه الله: "إني لأُصابُ بالمصيبة فأَحْمَدُ اللهَ عليها أربعَ مراتٍ، أَحْمَدُهُ إذْ لم تكنْ أعظمَ مِمَّا هيَ، وأَحْمَدُهُ إذْ رَزقني الصبرَ عليها، وأَحْمَدُهُ إذْ وَفَّقني للاسْتِرجاع لما أَرْجُو فيه مِن الثواب وأَحمَدُهُ إذْ لم يَجعلْها في دِيني "(90).

وقال شُريح رحمه الله أيضاً : " ما أُصيبَ عَبْدٌ بمصيبةٍ إلا كان لله عليه فيها ثلاثُ نِعَمٍ : أنْ

87 - سورة البقرة، الآية: 156.

88- مسلم، **صحيح مسلم**، رقم الحديث: 918، ج 2 ص 633.

89- أحمد، **المسند**، رقم الحديث: 24982، ج 41 ص 441، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: "حديث صحيح لغيره".

90- البيهقي ، **شُعب الإيمان**، ج12، ص347 ، والذَّهبي ، **سِير أعلام النبلاء**، ج4، ص105 .

لا تكون كانتْ في دِيْنِه، وأنْ لا تكون أعظمَ مِمَّا كانتْ "[91].

إنه يَنظر للمصيبة بِمنظار الإيمان، لا بِمنظار أَلِمها، إنها النظرة الإيمانية العملية الإيجابية، التي تَجعل المسلم يَنطلِق في الحياة، وليس في قلبه إلا التسليم لقضاء الله تعالى، والصبر على المصيبة.

وقد "جاء رجلٌ إلى يونس بن عُبَيْدٍ يَشكو ضيقَ حالِه ، فقال له يونسُ : " أَيَسُرُّكَ بِبصرِكَ هذا الذي تُبْصِرُ به مائةَ ألف دِرهمٍ ؟ قال الرجلُ: لا، قال يونسُ: فَبِيَدَيْكَ مائةَ ألفٍ؟ قال الرجلُ: لا، قال: فَبِرِجْلَيْكَ ؟ ، قال الرجلُ : لا ـ فَذَكَّرَهُ بِنِعَمِ اللهِ عليه ثم قال يونسُ : أَرَى عندَكَ مِئِيْنَ أُلُوفٍ، وأنتَ تَشْكُو الحاجةَ "[92].

و" دَخَلَ رجلٌ عَلَى سهل بْن عَبْد الله فَقَالَ: إِنّ اللصَ دَخَلَ دَاري وأَخَذَ متاعي ، فَقَالَ: اشْكُرِ الله تَعَالَى، لو دَخَلَ اللصُ قَلبَكَ ـ وَهُوَ الشَّيْطَانُ ـ وأَفْسَدَ التوحيدَ ، ماذا كنتَ تَصْنَعُ ؟! "[93].

وقال صَعْدِي بن أَبي الحَجَر: "كنَّا نَدْخُلُ على المُغيرة فنقولُ: كيف أصبحتَ؟ قال: أَصبحنا مُغرقين في النِّعَم، مُوْقَرِين[94] مِن الشُّكر ، يتَحَبَّبُ إلينا رَبُّنا وهو عنَّا غَنِيٌّ ، ونَتَمَقَّتُ[95] إليه ونحن إليه مُحتاجون"[96].

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: إنّ رجلاً بُسِطَ له مِن الدنيا ، فانْتُزِعَ ما في يديه، فجَعَلَ

91- ابن أَبي الدنيا ، **الشكر** (الكويت: المكتب الإسلامي، 1400هـ) ص30 .

92- ابن أَبي الدنيا، **الشكر**، ص 36، وأبو نُعيم، **حِلية الأولياء**، ج 3 ص 22 بتصرف، والبيهقي ، **شُعب الإيمان** ، ج 6 ص 266 .

93- القُشَيري ، **الرسالة القُشيرية**، ج 1، ص 314 ، والغَزالي ، **إحياء علوم الدِّين** ، ج 4 ص 129.

94- الوَقْر : الحِملُ الثَّقيل، ابن منظور، **لسان العرب** ، ج 5 ص 289 ، والفَيروزآبَادي ، **القاموس المحيط**، ص 493 ، والمعنى : أصبحنا وعلينا شُكرٌ كثيرٌ لله تعالى على نِعَمِه الكثيرة .

95- تَمَقَّتَ إليه: نقيضُ تَحَـــبَّبَ إليه ، الزَّمَخْشَري ، **أساس البلاغة**، ج2، ص221 ، والمعنى: نَفْعَلُ أفعالاً يَبْغَضُها الله تعالى.

96- أبو نُعيم ، **حِلية الأولياء**، ج6، ص248 .

يَحْمَدُ اللهَ ويُثْنى عليه، حتى لم يكنْ له فِرَاشٌ إلا بَارِيَّة[97]، وبُسِطَ لآخَر مِن الدنيا، فقال لِصاحب البارية : أَرَأَيْتَكَ أنتَ، على ما تَحْمَدُ الله؟ قال: أَحْمَدُه على ما لو أُعطيتُ به ما أَعطى الخَلْقَ لمْ أُعْطَهمْ إيّاه، قال: وما ذاكَ؟ قال أَرأيتكَ بصركَ، أَرأَيتكَ لسانكَ، أَرأيتكَ يديكَ، أَرأيتكَ رِجليكَ"[98].

نِسْبَةُ الأشياءِ إلى مـُسَبِّبها "الله تعالى"

مِنْ شقاء العقل أنْ يظنّ أنّ الأمر الذي سار، إنما كان بجُهده أو بجُهد غيره، مِنْ غير مشيئة الله تعالى، وحينها يضلّ العقل وصاحبه ضلالاً بعيداً، فما شاءَه الله يكون، وما لَمْ يشأه لايكون، وحين يفقد العقل هذه الرؤية، فإنّه يغدو عبداً لمخلوق، لا يَملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً.

يقول زَيْد بن خَالِدٍ الجُهَنِيِّ رضي الله عنه : صَلَّى لَنَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاَةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ"[99].

إنّ نسبة الأشياء التي لا دَخْلَ للكائنات فيها، كإنزال الماءِ منَ السماء، يجعَل العقل يضع الأمور في نِصابها الصحيح، فحين تكون نافعة، يحمد الله تعالى عليها، ويطلب منه المزيد، لأنّه هو الذي أَنْزَلَها وأعطاها، وحين تكون ضارّة، يطلب من ربّه سبحانه أن يُبعدَ أذاها عنه، وحينئذٍ أدرك صواب المسألة فسَعِدَ في دنياه وآخرته.

97- الحَصير المعمول مِن قَصَب، **لسان العرب**، ج4، ص87 .

98- ابن القيم ، **عُدَّةُ الصابرين وذَخيرة الشاكرين** ، ص 130 .

99- البخاري، **صحيح البخاري** ، رقم الحديث: 846، ج 1 ص 169 .

تدريب العقل على اتخاذ القرار

يَحتاج العقل أنْ يَتدرب ويَتَمَرَّس، على حُسْن إدارة المواقف، حتى يَتمكن مع مرورِ الأيام وتعدد المشكلات التي تُواجهه، مِن اتخاذ القرار الصائب أو الأقرب للصواب.

قال عبدُ الله بن عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الأَحْزَابِ: "لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ" فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمُ العَصْرَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ "(100).

لقد أعطى الإسلام العقل مساحة كبيرة للتفكير والتأمل ، ودعاه لتفعيل ذلك في القضايا التي تواجهه ، وحَفَّزه لاتخاذ قرار فيما يُواجهه .

إن على المربي أن يُعطي الشخص فرصة ، على اتخاذ قرار في موقف يَمرُّ به ، ولا يُعنفّه عند خطئه في اتخاذ قراره ، حتى يُشجعه على إعمال عقله لاتخاذ قرارات في مواقف قادمة .

الحَزْم في اتخاذ القرار

لئن فتح النبي صلى الله عليه وسلم الباب لاتخاذ القرار في مواقف ، فقد شَجَّع كذلك على الحزم وعدم التردد في اتخاذ القرار، خاصة في المواقف المصيرية، التي تَحتاج لقرار سريع بعد مشورة، وإلى سُرعة في حسم هذا القرار، حتى لا تكون العواقب كبيرة على المرء ومَن حوله.

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ قَبْلَ غزوة أُحُدٍ : "لَوْ أَنَّا أَقَمْنَا بِالْمَدِينَةِ فَإِنْ دَخَلُوا عَلَيْنَا(101) فِيهَا قَاتَلْنَاهُمْ"، فَقَالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ مَا دُخِلَ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَيْفَ

100- البخاري، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: 4119، ج 5 ص 112، ومسلم، **صحيح مسلم**، رقم الحديث: 1770 ، ج 3 ص1391.

101- الكفار .

يُدْخَلُ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "شَأْنُكُمْ إِذًا" ، فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ: فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: رَدَدْنَا عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْيَهُ، فَجَاءُوا، فَقَالوا: يَا نَبِيَّ الله، شَأْنُكَ إِذًا، فَقَالَ: "إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ"(102).

العقل الرشيد الواعي، يَجعل صاحبه يُقْدِم للمعالي والخير، ولا يَترك كثرة الآراء، وتَعدد ميولات الآخرين نحو أَمرٍ ما، يعيش في التردد، لأنّ التردد يُشَتت العقل عن البوصلة الصحيحة، ويُفْقِده اتزانه ، ويُرْبِكُ مَسيره ، ويضيع وقته ، فالتردد يجعل العقل يَدُور في حلقةٍ مُفْرَغة !! ، أمّا الحزم ، فيولِّد العَزْم ، ويُنهي الوسوسة ، ويَقطع الشك، ويُكْسِب النَّفْسَ قوةً وثِقَةً .

وقد قيل لِلمُهَلَّبِ بنِ أَبي صُفْرَةَ : بِمَ نِلْتَ ما نِلْتَ ؟ قال: " بطَاعَةِ الحَزْمِ، وَعِصْيَانِ الهوى"(103).

لا تَتْرُكَ الحزمَ في أمرٍ تُحَاذِرُه ... فإنْ أَمِنْتَ فَمَا بالحزمِ مِن بَاسِ(104)

استخدام الحِيْلة المُباحَة

الحياة ممتلئة بأصحاب الضمائر الضعيفة، وأصحاب النفوس المريضة، والذين يَخلِطون الصواب بالخطأ ليضيع ، ويَقلِبون الباطل إلى حقٍّ ، لتضيع الحقيقة ، لتحقيق مآرِب رخيصة ، لذلك يُعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم قاعدة عقلية ذهبية ، لِنمارِسها بالحق ، لإظهار الحق ونصرته في دياجير الظلام.

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الحَرْبُ خَدْعَةٌ"(105)(106).

102- أحمد ، **المسند** ، ج 23 ص 99ـ100 رقم 14787 ، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط :" صحيح لغيره، وهذا إسناد على شرط مسلم ".

103- ابن أَبي الدنيا ، **العقل وفضله** ، ص 63 .

104- ابن حِبَّان ، **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء** ، ص 217 .

وقال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ ، وَقَالَتِ الأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لاَ تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللهُ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى "(107).

ويمكن تعريف الحيلة الشرعية بأنها: إعمال العقل لتحصيل مصلحة شرعية ، بِجَلبِ منفعةٍ أو تقليل شَرٍّ بطريقٍ خَفِي .

أو هي الوصول لمصلحةٍ شرعية بطريقٍ خَفي .

إنّ الحياة مُمتلئة بالفِتن والمشاكل، وقد يَحتاج المرء إلى إعمال عقلِه في ما يُوَاجِهه، مِن مشاكل وفِتَن، وقد يَفتقِد الدليل والبُرهان الواضح للحصول على ما يُريده مِن الخير، لِنفْسِه أو لغيره، وقد يَفتقِد القوة المادية للانتصار في معركة حربية، أو لحُصوله على حَقه المادي لِنَفْسِه أو لغيره، فهنا جاءت السنة النبوية لِتحفيز المسلم لإعمال عقلِه، بضابط إحقاق الحق لِنفسه أو لغيره، وردِّ الظلم عن نَفْسِه أو غيرِه، فالسنة النبوية هنا فيها تحفيز للمسلم لتقوية عقله وتربيته وصَقْلِه، بامتلاك مهارات تَجعله أكثر قُدرة على تحقيق الحق بالحيلة الشرعية عند عدم وجود القوة المادية أو الدليل الجَلي الواضح .

105- "بِضَمِّ الْخَاءِ وَتَسْكِينِ الدَّالِ هُوَ الْمَشْهُورُ ، وَقَالَ ثَعْلَبٌ : فِيهِ ثَلَاثُ لُغَاتٍ ، خُدْعَةٌ بِضَمِّ الْخَاءِ وَتَسْكِينِ الدَّالِ ، وَخَدْعَةٌ بِفَتْحِ الْخَاءِ وَتَسْكِينِ الدَّالِ ، وَخُدَعَةٌ بِضَمِّ الْخَاءِ وَفَتْحِ الدَّالِ "، **طِلْبَةُ الطَلَبَة في الاصطلاحات الفقهية** ، ص87 ، انظر: **الصِّحَاح تاج اللغة وصِحَاح العربية**، ج3، ص1202، والخَطَّابي، **غريب الحديث**، ج2، ص166.

106- البخاري، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: 3030 ، ج 4 ص 64، ومسلم، **صحيح مسلم**، رقم الحديث: 1739، ج 3 ص 1361 .

107- البخاري، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: 6769، ج8، ص156 ـ 157.

الحذر مِن خِداع الناس

قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا يُلْدَغُ المـُؤْمِنُ مِن جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ"(108).

" هذا يُروى على وجهين مِن الإعرابِ:

أحدُهما : بضم الغَين (يُلْدَغُ) على مذهبِ الخَبَر ، ومعناه : أنّ المؤمنَ الممدوح ، هو الكَيِّسُ الحازم ، الذي لا يُؤْتَى مِن ناحيةِ الغَفلة ، فيُخْدَعُ مرةً بعد أُخرى ، وهو لا يَفْطَنُ بذلك ، ولا يَشْعُرُ به.

وقيل : أنّه أَراد به الخِداع في أمرِ الآخرةِ ، دُون أَمْرِ الدنيا.

والوجهُ الآخَر : أنْ يكون الرواية بكسر الغين (يُلْدَغِ) على مَذْهب النَّهي، يقول: لا يُخْدَعَنَّ المـُؤْمِن، ولا يُؤْتَيَنَّ مِن ناحيةِ الغفلة، فيقع في مكروهٍ أو شَرٍّ وهو لا يَشْعُر، وليَكُن مُتيقِظاً

108- نفس المصدر، ج8، ص31 رقم الحديث: 6133.

وما رُوِيَ مِن طريق " سعيد بن المـُسَيَّب : أَمَّنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مِن الأَسْرَى يوم بدرٍ أَبا عَزَّة عمرو بن عبد الله بن عُمَيْر الجُمَحِي ، وكان شاعراً ، فأَعْتَقَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : لِي خَمْسُ بناتٍ ليس لهُنَّ شيءٌ ، فتَصَدَّقْ بِي عليهنَّ يا محمد. فَفَعَلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وقال أبو عَزَّة : أُعْطِيْكَ مَوْثِقاً لا أُقاتِلُكَ ، ولا أُكْثِرَ عليكَ أَبداً . فأَرْسَلَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فلمّا خَرَجتْ قريشُ إلى أُحُدٍ ، جاءَه صَفْوانُ بن أُمَيَّة فقال : اخْرُجْ مَعَنا ! ، فقال : إنِّي قد أَعْطَيتُ محمداً مَوْثِقاً أَلَّا أُقَاتِلَه ، ولا أُكْثِرَ عليه أَبداً ، وقَدْ مَنَّ عليَّ ، ولَمْ يَمُنَّ على غيري ، حتى قَتَلَه ، أو أَخَذَ مِنْهُ الفِدَاء. فضَمِنَ صَفْوان أنْ يَجْعَلَ بَناتَه مع بَناتِه إنْ قُتِلَ ، وإنْ عاشَ أَعطاهُ مالاً كثيراً لا يأْكُلُه عِيالُه.

فخَرَجَ أبو عَزَّة يدعو العربَ ويَحْشُرُها ، ثمَّ خَرَجَ مع قريشٍ يومَ أُحُدٍ ، فأُسِرَ ولَمْ يُؤْسَرْ غيرُه مِن قريشٍ ، فقال : يا محمد ، إنّما خَرَجْتُ مُكْرَهاً ، ولِيَ بناتٌ فامْنُن عليَّ ! ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : أين ما أَعطيتني مِن العهدِ والمِيثاق ؟ ، لا والله، لا تَمْسَح عارِضَيْكَ بمكةَ تقولُ : سَخِرْتُ بمحمدٍ مرتين ! " ، الواقدي ، **المغازي** (بيروت: دار الأعلمي) ج 1 ص 110ـ111.

لا يصح، إسنادُه واهٍ جِداً، فالواقدي متروك، انظر: الألباني، **إرواء الغليل**، ج 5 ص 41 .

وفي مَتنه نكارة:" ابْنِ جُعْدُبَه: ما أُسِرَ يَوْم أُحُدٍ هُوَ وَلَا غَيره، وَلَقَد كَانَ المُسلمون يومئِذٍ في شُغْلٍ عَن الأَسْرِ"، الضَّبِّي، **طبقات فحول الشعراء**، ج1، ص255 .

حَذِراً ، وهذا قد يَصْلُحُ أنْ يكون في أَمْرِ الدنيا والآخرةِ معاً "[109].

وهذا الحديث المُـمْتَلِئ حكمةً " فيه أدبٌ شريفٌ، أَدَّبَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم أُمَّتَه، ونَبَّهَهم كيف يَحْذَرون ما يَخَافون سُوءَ عاقبته"[110].

يقول القاضي إياس بن معاوية رحمه الله : " لستُ بِخِبٍّ، والخبُ لا يَخْدَعني"[111].

فالمسلم العاقل لا يقع في نَفْس الإشكال الذي وقَعَ فيه، ولا يَدْخُلُ في أَمْرٍ قد لَقِيَ مِنه حَزَناً وأَلماً.

تنمية القدرة على الموازنة بين المصالح والمفاسد

قال علي رَضِيَ الله عَنْه: " بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ : أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا ، وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا ، ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا ، فَأَوْقَدُوا نَارًا، فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ ، فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا ؟ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ، إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : "لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ"[112].

تُوَاجِه المرء مواقف تجعله في مُفترق طُرُق، يَقِف حائِراً في أَيِّها يَسير ويَسْلُك ؟!، وكلما كان عند المرء عقلاً واعياً، وعِلْماً صحيحاً، فإنّه سيُوفَّق إلى الحَسَن مِنها أو إلى أَحْسَنِها، ويَعْرِف الصالح

109- الخَطَّابي ، **معالِم السُّنَن**، ج4، ص119.

110- ابن بَطَّال، **شرح صحيح البخاري**، ج9، ص307.

111- الضَّبِّي ، **أخبار القُضاة**، ج1، ص348 ، وابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج10، ص19.

112- البخاري، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: 7145، ج9، ص63.

مِنها مِن الفاسِد ، والخير مِن الشر، وأُولى خُطوات الصواب أنْ يَقِفَ المرءُ عندما يَعْجَز عن الترجيح بين الصواب والخطأ، ويَستشير أهل الخِبرة والعِلْم.

فالصحابة رضي الله عنهم كانوا هنا بين مفسدة طاعة الأمير، في دُخول النار، وهلاكهم بذلك، وبين مصلحة بقاء حياتهم وعصيان أميرهم في طلبه دخولهم النار، فوازنوا بعقولهم بين الأمرين، فرجَّحوا الثانية، وقد أَيَدَهُم النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الموازنة العقلية، وحُسْن ترجيحهم بين الأمرين.

وقد قيل لعلي رضي الله عنه: " صِفْ لنا العاقل، فقال: هو الذي يَضَعُ الشيءَ مَوَاضِعَه . قيل : فَصِفْ لنا الجاهلَ، قال: قد فَعَلْتُ. يعني: الذي لا يَضَعُ الشيءَ مَوَاضِعَه "(113).

و"ثلاثةٌ هُنَّ رأسُ العقل: مُداراةُ الناس، والاقتصادُ في المعيشة، والتَّحَبُّبُ إلى الناسِ"(114).

فقه الأَولويات

تتزاحم الأمور المهمة في عيني المرء، فلا يَدري بأيِّها يَبدأ أو يُقَدِّم، فلابد هنا مِن إعمال العقل وِفق قواعد الشرع، لتقديم الأهم على المهم، والمهم على غير المهم، حتى يَستطيع إيصال الخير، لِمن هم أَولى به، وأَحوج إليه، حتى لا يُعتَب عليه، ولا يأثم شرعاً، فيسير في سلوكه على نورٍ بيِّن.

يقول النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ"(115).

113- الزمخشري، **ربيع الأبرار ونصوص الأخيار**(بيروت: مؤسسة الأعلمي) ج 3 ص 445 ـ 446، والثعالبي، **الشكوى والعِتاب**، ص 199.

114- **المستطرف في كل فن مستظرف**، ص 21 .

115- البخاري، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: 1426، ج 2 ص 112.

وقال أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: "أُمُّكَ" قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "ثُمَّ أُمُّكَ" قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "ثُمَّ أُمُّكَ" قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "ثُمَّ أَبُوكَ"(116).

وأَعتقتْ أمُّ المؤمنين مَيْمُونَة بِنْت الحَارِثِ رَضِيَ الله عَنْهَا ، وَلِيدَةً(117) وَلَمْ تَسْتَأْذِنِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهَا فِيهِ ، قَالَتْ: أَشَعَرْتَ يَا رَسُولَ الله أَنِّي أَعْتَقْتُ وَلِيدَتِي ، قَالَ:" أَوَفَعَلْتِ؟ "، قَالَتْ: نَعَمْ ، قَالَ:" أَمَا إِنَّكِ لَوْ أَعْطَيْتِهَا أَخْوَالَكِ كَانَ أَعْظَمَ لِأَجْرِكِ"(118).

إنّ إدراك المرء إلى ما هو الأفضل فِعلُه في الزمان أو المكان أو مع الأشخاص، يكون هذا مِن فقه الإنسان وحُسْن سياسته للأُمور، ودليلٌ بَيِّنٌ على رَجاحة عقله، ونور قلبِه، فهو يُحْسِن ترتيب الأَولويات، وتقديم الأَهم ثم المُهِم .

وهذا ما يُدْرِكه صاحب العقل الرشيد، والفِقْه السَّديد، مِن نور كلام النبي صلى الله عليه وسلم، فهو يُربي كل مسلم، على أنْ يُعطي كلَّ أَمْرٍ مقدار مكانته وأَهميته، ويُحْسِن ترتيب الأَولويات في أمور حياته، في أُمورِه الخاصَّة، أو في شؤونه العامّة مع الناس.

حُسْن مداراة الناس

عقول الناس مُتفاوتة، ومَشاربهم متنوعة، وحُسْنهم وسُوؤهم مُتباين، ولا يَحْسُن نصيحة بعضهم موعظة خاصة، لأنه سيعلن فُجوره ومُعاداته لِمَن حوله، فالحكمة أنْ يُستقبل بإحسان، ويُتألف قلبه تقليلاً لِشرِّه ، ودَفعاً لِكيده وبَطشه .

116- نفس المصدر، ج8، ص2 رقم الحديث: 5971 .

117- الجارية والأَمَة وإنْ كانت كبيرة ، ابن منظور، **لسان العرب**، ج3، ص468.

118- البخاري، **صحيح البخاري**، ج3، ص158 رقم الحديث: 2592.

قالت عَائِشَةُ رضي الله عنها: إنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: "بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ ، وَبِئْسَ ابْنُ العَشِيرَةِ"، فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ الله، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ ؟، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا عَائِشَةُ، مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ الله مَنْزِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ"(119).

إنّ المداراة هي : التلطُّف مع الناس ، ترغيباً لهم في الخير أو دَفعاً لِشرِّهم .

فالعقل الرشيد هو مَن يُحْسِن التصرف مع كل شخص بما يُناسِبه، والنبي صلى الله عليه وسلم هنا يُعلِمُنا، أنّ هناك صِنفٌ مِن الناس، لا يَحْسُن معهم النصيحة المباشرة، لأن نُفوسهم لا تتقبل ذلك، وإذا حصلت النصيحة لهم بأجمل أسلوب، فسيقابلون الناصح لهم بالسوء والإنكار الشديد، فالعاقل يُعاملهم باللطف اتقاءً لشرهم وسُوئهم.

يقول الإمام الحسن البصري رحمه الله: " التَّوَدُّدُ إلى النَّاسِ نِصْفُ العقلِ"(120).

وقال الحَجَّاج لابن القرية: "مَن أَعقلُ الناسِ ؟، قال: الذي يُحْسِنُ المُـداراة مع أهلِ زَمَانِه"(121).

إنّ " الواجبَ على العاقلِ أنْ يُدَاري الناسَ، مُدَاراةَ الرجلِ السَّابحَ في الماء الجاري، ومَن

119- البخاري، **صحيح البخاري**، رقم الحديث: 6032، ج 8 ص 13، و**صحيح مسلم**، رقم الحديث: 2591، ج 4 ص 2002.

120- ابن أَبي الدنيا ، **مُداراة الناس** (بيروت: دار ابن حزم، 1418هـ) ص 50 رقم 44، و**الإخوان** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1409هـ) ص 192 رقم 139، و**الصمت** (بيروت: دار الكتاب العربي، 1410هـ) ص 178 رقم 309. يقول محمد العاملي:" إذا كان التودد نصف العقل، فالتباغض كل الجنون "، محمد العامِلي، **الكشكول**، ج1، ص125.

121- الثَّعالبي ، **الشكوى والعِتاب**، ص 198 رقم 560 .

ذَهَبَ إلى عِشْرَة الناسِ مِن حيث هو، كَدَّرَ على نَفْسِه عَيْشَه ، ولم تَصْفُ له مَوْدَته، لأنّ وِدَادَ الناسِ لا يُستجْلَب إلا بمساعدتهم على مَا هم عَلَيْهِ، إلا أنْ يكون مأْثَماً، فإذا كانتْ حالةُ معصيةٍ فلا سَمْعٌ ولا طاعة، والبَشَرُ قد رُكِّبَ فيهم أهواءٌ مُختلفة وطبائع مُتباينة، فكَمَا يَشُقُّ عليك تَرْكُ مَا جُبِلْتَ عَلَيْهِ، فكذلك يَشُقُّ على غيركَ مُجانبةُ مِثْلِه، فليس إلى صَفْوِ وِدَادِهم سبيلٌ إلا بمعاشَرتِهم مِن حيث هُم، والإغضاءُ عَن مُخالفتهم في الأوقات "[122].

وقال معاوية رضي الله عنه: " لو أنّ بيني وبين الناس شعرةٌ ما انقطعت، قيل: وكيف ذاكَ ؟ قال: كنتُ إذا مَدُّوها خَلَّيْتُها، وإذا خَلُّوها مَدَدْتُها "[123].

وقال أَبو سِنَانٍ : قُلْتُ لِسَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ: المـجُوسيُّ يُولِينِي مِن نَفْسِهِ [124]، ويُسَلِّمُ عليَّ أَفَأَرُدُّ عليه ؟ فقال سعيدٌ: سأَلتُ ابْنَ عبَّاسٍ عن نَحْوٍ مِنْ ذلك ، فقال: "لو قال لِي فِرْعَوْنُ خَيرًا لَرَدَدْتُ عليه"[125].

وقال إبراهيم بن يسار: " ما يَسُرني تركُ المداراة وِلِيَ حُمْرُ النَّعَم[126] . قيلَ لِـمَ ؟، قال: لأنّ الأمرَ إذا غَشِيَكَ فَشَخَصْتَ له أَزْدَاكَ ، وإذا تَطَأْطَأْتَ له تَخَطَّاكَ "[127].

المبادرة لاغتنام الفُرَص

الحياة قصيرة ، والقدرات أقل ، فعلى العاقل أن يَستثمر فيما يُتاح بين يديه ، فالفرصة قد

122- ابن حِبَّان ، **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، ص 71 .

123- ابن قُتيبة ، **عُيون الأخبار**، ج1، ص62 ، و**غريب الحديث**، ج2، ص413، والبلاذري ، **أنساب الأشراف** (بيروت: دار الفكر) ج5، ص85 .

124- يُقَرِّبُني مِن نَفْسِه ويُكْرمني .

125- ابن أَبي الدنيا، **مداراة الناس** ، ص93 رقم 104.

126- كِرَامُ الإِبل، وأعلاها منزلة ، انظر: ابن الأَنباري، **الزَّاهِر في معاني كلمات الناس**، ج2، ص280 .

127- الراغب الأصبهاني، **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** (بيروت: دار الأرقم، 1420هـ) ج1، ص340 .

لا تأتي في وقت آخَر، فصاحب العقل الرشيد مَن إذا أَتت فرصة دنيوية أو أُخروية، بادر وسارع لاغتنامها، لاكتساب خير يعود عليه ومَن حوله، أو لِدفع شَرٍّ عنه وعمّن حولَه .

قال أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا"(128).

وقال عبدُ الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ: "بَادِرُوا الصُّبْحَ بِالْوِتْرِ"(129).

وقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: " اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ"(130).

إنّ مِن كمال عقل المرء مُبادرته لاغتنام الفُرص التي تَحْصُل له وتأتيه، فالعبد لا يَسير في هذه الحياة على طريقة واحدة ، فهو مُتقلِّبٌ مِن بلاءٍ إلى بلاء ، فمِن بلاء العافية إلى بلاء المرض ، ومِن بلاء الشباب إلى بلاء الهَرَم ، ومِن بلاءِ الغِنى إلى بلاء الفقر ، ومِن بلاءِ الفراغ إلى بلاء الشُّغْل، ومِن بلاء الحياة إلى بلاءِ الموت !

فهذا التوجيه النبوي الرائع يقول للمرء: " اعمل ما تلقى نَفْعَه بعدَ موتِكَ، وبادِر أيامَ صِحتك بالعمل الصالحِ، فإنّ المرضَ قد يَطْرَأُ فيَمتنع مِن العمل، فيُخشى على مَن فَرَّطَ في ذلك أنْ

128- مسلم، **صحيح مسلم**، رقم الحديث: 118، ج1، ص110.

129- نفس المصدر، ج1، ص517 رقم 750 .

130- ابن أَبي الدنيا ، **قِصَر الأمل**، ص 89 رقم 111، قال العراقي:" إسناد حسن "، **تخريج أحاديث إحياء علوم الدِّين**، ج6، ص2488 ، وقال الألباني :" صحيح" ، **صحيح الترغيب والترهيب**، ج3، ص168.

يَصِلَ إلى المعادِ بغير زادٍ "[131].

" فالعاقل إذا أمسى لا يَنتظر الصباح ، وإذا أصبحَ لا يَنتظر المساء، بل يظنُّ أنّ أَجلَهُ يُدْركه قبل ذلك، فيَعمل ما يَلْقى نَفْعَه بعدَ موته، ويُبادِر أيامَ صِحته بالعملِ الصالح، فإنّ المرضَ قد يَطْرأ فيَمْنَع مِن العمل، فيَخْشَى على مَن فَرَّطَ مِن ذلك، أنْ يَصِلَ إلى المعادِ بغير زادٍ، فمَن لم يَنتهزْ الفُرصةَ يَندم. وما أحسن قول مَن قال:

إذا هَبَّتْ رِياحُكَ فاغْتَنِمْها ... فإنّ لكلِّ خافقةٍ سُكُونُ

ولا تَغْفل عن الإحسانِ فيها ... فَمَا تَدْري السُّكون متى يكونُ"[132].

الخاتمة

لقد تجلّى مِن خلال هذه الدراسة في فقه النبي صلى الله عليه وسلم في بناء العقلية الرشيدة ما يلي:

- سَعَة السنة النبوية في امتلاكها لمقومات النجاح لشخصية المسلم في جميع مناحي الحياة .
- إبداع النبي صلى الله عليه وسلم في تَنويعه الثَّري في أساليب بناء العقل الرشيد .
- حِرْص النبي صلى الله عليه وسلم على توجيه الأُمّة لأسباب تنوير العقل وتَمَيُّزِه .
- السُّنَّة النَّبوية محفوظة مِن التحريف، بتيسير وتأهيل الله تعالى علماء الحديث لِخدمتها، في السند والمَتن .
- حَظِيَ العقل باهتمام وعِناية كبيرة في السنة النبوية الصحيحة .
- العقل السليم مِن الشبهات والشهوات، لا يتعارض أبداً مع النقل الصحيح .

131- ابن حجر ، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج11، ص235 .

132- القسطلاني ، **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، ج9 ، ص238 .

- مُخاطبة الناس على قَدْرِ عُقولهم مِن كمال عقل الإنسان وتوفيقه .
- حُسْن إدارة الأَولويات في الحياة مِن رُشدِ عقلِ الإنسان .

يُوصي الباحث بـِ :

- تكثيف الجهود لإعمال أهل الاختصاص في العلوم الشرعية والتربوية، لاستنباط واستكشاف ما في السنة النبوية مِن حلول للحياة المعاصرة .
- نشر السنة النبوية للناس بقوالِبَ إبداعية، تَظْهَر بها الحلول العملية لمشكلاتهم .

References

1. ibn al-athir al-mubarak, **al-nihāīaẗ fī gharīb al-ḥadīṯh wa al-ʾāṯhar** (Baīrūt: al-maktabaẗ al-ʿilmīaẗ).
2. Muhammad al-azhari, **al-ṣiḥāḥ tāj al-lughaẗ waṣiḥāḥ al-ʿarabīaẗ (**baīrūt: dār īḥīāʾ al-turāṯh al-ʿarabī).
3. Muhammad Al-Albani, **silsilaẗ al-ʾaḥādīṯh al-ṣaḥīḥaẗ** (Riyadh: dār al-maʿārif).
4. Muhammad Al-Albani, **silsilaẗ al-ʾaḥādīṯh al-ḍaʿīfaẗ wa al-maūḍūʿaẗ wa āṯharuhā al-saīʾ fī al-ʾaumwaẗ** (Riyadh: dār al-maʿārif).
5. Muhammad ibn al-anbari, **al-zāhir fī maʿānī kalimāt al-nās, (**baīrūt: mūʾsasaẗ al-risālaẗ).
6. Muhammad bin Ismail Al-Bukhari, **ṣaḥīḥ al-bukẖārī** (damishq: dār ibn kaṯhīr, 1987 AD).
7. Al-Jahiz, **al-baīān wa al-tabīīn** (ālqāhiraẗ:maktabaẗ al-kẖānjī).
8. Muhammad bin Hibban, **ṣaḥīḥ ibn ḥibān** (Baīrūt: Muʾassasat ul Risālah, 1993 AD
9. Aḥmad bin ḥanbal, **musnadu al-īmām āḥmad bin ḥanbal** (Baīrūt: Dār ul- Kutub al- ʿilmiyyah,1424 AH).
10. Ahmed bin Ali bin Hajar al-Asqalani, **fatḥ al-bārī** (Baīrūt: dār al-maʿrifaẗ, 1379 AH).
11. Sulaiman al-khatabi, **gharīb al-ḥadīṯh** (baīrūt: dār al-fikr).
12. Muslim bin Al-Hajaj, **Al- Jāmiʿ al- Ṣaḥīḥ**, (Baīrūt: Dār ʾiḥyaʾ al-Turāth).
13. Ahmad abu Nuaim, **ḥilīaẗ al-ʾaūlīāʾ** (baīrūt dār al-kutub al-ʿilmīaẗ).
14. Muhammad bin Mukrim ibn Manzūr Al- ʾifrīqī, **Lisān ul ʿarab**, (Dār Ṣādir, 1414 AH).
15. Ahmad bin Shuaib al-nasai, **sunan al-nasāʾī** (Baīrūt: dār al-maʿrifaẗ, 2007).
16. Ibn Abd al-undalusi, **al-ʿiqdu al-farīd** (baīrūt: dār ṣādir).
17. Muhammad al-shawkani, **adab al-ṭalab wa muntahi al-ʾadab** (baīrūt: dār abn ḥazam).
18. Muhammad bin Salam, **ṭabaqāt fuḥūl al-shuʿarāʾ** (jadaẗ: dār al-madanī).

19. Ali Ibn Asakir, **tārīkẖ damishq** (baīrūt: dār al-fikr).
20. Muhammad al-fakihi**, akẖbār makaẗ** (baīrūt:dār kẖiḍar).
21. Muhmmad al-amili, **al-kashkaūl** (baīrūt : dār al-kutub al-ʿilmīaẗ).
22. Ahmad al-qastalani**, irshād al-sārī** (miṣr: al-maktabaẗ al-kubrai al-ʾāmīrīaẗ).
23. Ahmad al-qastalani, **ḏakẖīraẗ al-ḥufwāẓ** (Riyadh: dār al-salaf).
24. Abdullah ibn Qutaibat**, ʿuīūn al-ʾakẖbār** (baīrūt : dār al-kutub al-ʿilmīaẗ).
25. Abdul Kareem, **al-risālaẗ al-qushīrīaẗ** (baīrūt:dār al-maʿārif).
26. Muhammad ibn al-qayem, **iʿlām al-m.ūqʿīn ʿan rbwiu al-ʿālamīn** (baīrūt : dār al-kutub al-ʿilmīaẗ).
27. Muhammad al-manbaji, **taslīaẗ āhlu al-maṣāʾīb** (baīrūt: dār al-kutub al-ʿilmīaẗ).
28. Umar al-nasafi, **ṭilbaẗu al-ṭalabaẗ fī al-āṣṭilāaḥāt al-fiqhīaẗ**, (baīrūt: al-maṭbaʿaẗ al-ʿāmiraẗ).
29. Ahmad al-tahawi, **sharḥ mushkil al-ʾāṯhār** (baīrūt: mūʾsasaẗ al-risālaẗ).
30. Sulaiman al-tabrani, **al-muʿjam al-kabīr** (maktbẗ abn taīmīaẗ , miṣr) .